الخِطابُ القرآنيُّ والتعدديَّة الدينيَّة
في الواقعِ المعاصرِ
- دراسة موضوعية -

Qur'anic Discourse Religious
Pluralism and Contemporary Reality
Objective Study

أ.م.د. حميد شاهر فرحان
Assist. Prof. Dr. Hamid Shaher Farhan
جامعة الأنبار - كلية التربية للعلوم الإنسانية
Anbar University - Faculty of Education for Humanities
E - mail: ed.hamid.farhan@uoanbar.edu.iq

Journal of Islamic Sciences
Vol.2 | Issue 43
ISSN: 2225-9732
August 2026

الملخص

تناول البحث قضية التعددية الدينية في الخطاب القرآني من خلال دراسة تحليلية وصفية تستقرئ النصوص القرآنية ذات الصلة، وتفكك دلالاتها في ضوء مقاصد الشريعة، وقد بيَّن البحث أن القرآن الكريم أقرّ بالتعددية الدينية كحقيقة كونية واجتماعية، ووضع أُسساً أخلاقية وتشريعية لإدارة الاختلاف، تقوم على العدل، والمساواة، والحرية الدينية، والحوار، ونبذ الإكراه، مع التمسك بخصوصية العقيدة الإسلامية ومرجعيتها النهائية، كما ناقش البحث التحديات المعاصرة التي تواجه تفعيل هذا الخطاب في واقع يشهد صراعات دينية وسياسية، ويقترح آفاقاً عملية لتجديد الخطاب بما ينسجم مع المقاصد القرآنية.

الكلمات المفتاحية: الخطاب القرآني، التعددية الدينية، الواقع المعاصر.

The study addressed the issue of religious pluralism in the Qur'anic discourse through a descriptive analytical study that surveys relevant Qur'anic texts and deconstructs their connotations in light of the higher objectives of Islamic law (Maqāṣid al - Sharīʿah). The study demonstrated that the Noble Qur'ān affirms religious pluralism as a universal and social reality, and establishes ethical and legislative foundations for managing diversity, based on justice and equality, religious freedom, dialogue, and the rejection of coercion, while maintaining the distinctiveness of Islamic creed and its ultimate authority. The study also discusses contemporary challenges facing the activation of this discourse in a reality marked by religious and political conflicts, and proposes practical horizons for renewing the discourse in a manner consistent with Qur'anic objectives.

Keywords: Qur'anic Discourse, Religious Pluralism, Contemporary Reality

المقدمة

تُعَدُّ التعددية الدينية من المحاور الأساسية في الدراسات الإنسانية المعاصرة؛ لأنها ترتبط بقضايا التعايش السلمي، وإدارة الاختلاف، وبناء المجتمعات ذات التعددية الدينية والثقافية، وقد زادت أهمية هذا الموضوع في العصر الحديث؛ نتيجة للتحولات السياسية والفكرية فيه، وازدياد النزاعات ذات البعد الديني، وسوء استعمال النصوص المقدسة لتبرير الإقصاء والعنف.

ويأتي القرآن الكريم كمرجعية عليا في الفكر الإسلامي يحمل خطابًا متكاملًا موجهًا للإنسان كمؤسس لمنظومة أخلاقية وتشريعية تنظم علاقة المسلم بغيره سواء أكان هذا الغير مخالفاً له في الدين، أم المذهب أم الثقافة، فهو لا ينكر واقع التنوع، ولا هو يذيب هويته العقدية، وهذا الإقرار لا يعني التصويب العقدي بجميع الأديان، بل يعني الاعتراف لوجودها في الواقع، والتعامل معها وفق منظومة أخلاقية، وتشريعية قائمة على العدل والبر، ومن هنا فإن دراسة التعددية الدينية في الخطاب القرآني تكتسب طابعًا علميًا وإنسانيًا خاصة في كليات العلوم الإنسانية التي تعنى بفهم الإنسان والمجتمع والقيم.

هذا البحث ينطلق من محاولة قراءة النص القرآني قراءة موضوعية شاملة بعيدة عن الانتقائية أو الإسقاطات الأيديولوجية للكشف عن الأسس القرآنية التي تنظّم التعدد الديني وتحدد طبيعة العلاقة مع الآخر المختلف عقديًا مع ربط ذلك بالواقع المعاصر وتحدياته.

إشكالية البحث:

تجسدت إشكالية البحث في وجود تباين واضح بين الخطاب القرآني الأصيل في تعامله مع التعدد الديني، وبين بعض الممارسات أو القراءات المعاصرة التي تتسم بالإقصاء، أو التشدد، أو العنف باسم الدين، ويُطرح هذا التباين في سياق تساؤل علمي رئيس يتمثل في أمرين هما:

١ - كيف عالج الخطاب القرآني قضية التعددية الدينية، ٢ - وما مدى قابلية هذا الخطاب للتفعيل في الواقع المعاصر ضمن المجتمعات المتعددة دينياً؟

ويتفرع عن هذا السؤال عدد من الإشكالات الفرعية، من أبرزها:

١. ما الأساس القرآني لإقرار التعدد الديني في المجتمعات الإنسانية؟

٢. ما المقصود بالتعددية الدينية في ضوء القرآن الكريم؟

٣. ما الفرق بين الاعتراف بوجود الآخر الديني والإقرار بصحة معتقده؟

٤. ما الضوابط القرآنية الحاكمة للعلاقة مع غير المسلمين التي يمنع الانزلاق من التعايش المشروع إلى الذوبان العقدي؟

٥. ما أسباب تعثر تفعيل الخطاب القرآني المتوازن في الواقع المعاصر؟

وتسعت هذه الإشكالية إلى الربط بين النص القرآني من جهة، والواقع الإنساني المعاصر من جهة أخرى، في إطار دراسة إنسانية تحليلية.

أهمية البحث:

١. إبراز البعد الإنساني والحضاري للخطاب القرآني في تأصيل التعددية الدينية في الإسلام.

٢. تساعد على تعزيز التعايش السلمي بين اتباع الديانات المختلفة داخل المجتمعات المسلمة وغير المسلمة.

٣. الإسهام في بناء خطاب إسلامي معاصر يعزز التعايش والمنفتح على الآخر بعيدًا عن التطرف والانغلاق.

٤. رفد الدراسات القرآنية ببحث موضوعي تطبيقي.

أهداف البحث:

١. بيان المقاصد القرآنية في إدارة التعدد الديني.

٢. تحديد أسس التعددية الدينية في الإسلام.

٣. فهم طبيعة الاعتراف بالآخر، مع توضيح ضوابط الحفاظ على العقيدة الإسلامية في ظل التعايش المعاصر.

٤. استشراف آفاق تفعيل الخطاب القرآني في الواقع المعاصر.

منهج البحث:

اعتمد البحث المنهج الاستقرائي الوصفي التحليلي، من أثناء استقراء الآيات القرآنية ذات الصلة بالتعددية الدينية، وتحليلها في ضوء كتب التفسير المعتمدة، مع الاستفادة من المناهج المقاصدية والدراسات الفكرية المعاصرة، وربط النتائج بالواقع الراهن.

خطة البحث: اقتضت طبيعة البحث أن يقسم إلى خمسة مباحث:

المبحث الأول: الإطار المفاهيمي للتعددية الدينية.

المبحث الثاني: سنّة الاختلاف في القرآن الكريم وحرية العقيدة.

المبحث الثالث: أسس التعامل وتنوع الخطاب القرآني مع الآخر.
المبحث الرابع: التعددية الدينية ومقاصد القرآن في إدارة الاختلاف.
المبحث الخامس: التحديات المعاصرة للتعددية الدينية في ضوء الخطاب القرآني.

المبحث الأول: الإطار المفاهيمي للتعددية الدينية

المطلب الأول: مفهوم التعددية الدينية لغةً واصطلاحًا.

التعددية في اللغة:

عَدَدْتُ الشيءَ، إذا أحصيته، ومنه: العَددُ والعَديدُ، يقال: هم عَديدُ الحصَى والثَّرى، أي في الكثرة، وفلانٌ عَديدُ بني فلانٍ، أي: يُعَدُّ فيهم، وعَدَّهُ فاعْتَدَّ، أي: صار معدودًا، واعْتَدَّ به، ويشير مصطلح التعددية الدينية من حيث الدلالة اللغوية إلى تعدد الأديان ووجودها جنبًا إلى جنب مع المجتمع الثقافي(١).

التعددية في الاصطلاح:

تنتمي التعددية الدينية إلى الإقرار بوجود أديان متعددة، والاعتراف لصالح أتباعها في ممارسة شعائرهم، والتعامل معها على أساس العدل والإنصاف، دون تقريب المصادقة على تقديرهم من جانبهم(٢)، وقد ذكر بعض الباحثين مفهوم التعددية ضمن إطار اصطلاحي، وكان من بينهم القحطاني إذ قال: » الاعتراف والسماح للأديان المجتمع وطوائفه ومذاهبه وجماعاته وأحزابه بإظهار عقائدهم وآرائهم وتوجهاتهم، وممارستها والدعوة إليها عن طريق التجمعات السلمية، من غير إضرار بالآخرين»(٣).

كما عرفها الناصريُّ على أنها: » الاعتراف بوجود التنوع في الانتماءات في مجتمع واحد أو دولة تضم مجتمعًا أو أكثر، واحترام هذا التنوع وقبول ما يترتب عليه من اختلاف أو خلاف في العقائد، وإيجاد صيغة ملائمة للتعبير عن ذلك بأسلوب مناسب دون نشوب صراع ديني يهدد

(١) ينظر، معجم اللغة العربية المعاصرة، لأحمد مختار، ٢ / ١٤٦٤، والصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، لأبي نصر، ٢ / ٥٠٥.
(٢) ينظر، التعددية الدينية في الفكر الإسلامي، حسن عزالدين، ص (١١).
(٣) التعددية العقائدية وموقف الإسلام منها، للقحطاني، ص (١٨).

سلامة المجتمع(١).

المطلب الثاني: التعددية الدينية في الدراسات الإسلامية:

تُعدّ مسألة التعددية الدينية من القضايا المهمة التي حظيت باهتمام واسع في الدراسات الإسلامية، أبرزها جانب العقيدة، وجانب الفقه، وجانب العلاقات الاجتماعية، فقد أكد العلماء على أن الإسلام دين الحق، مع إقرارهم بوجود أديان أخرى واقعًا؛ نظرًا لارتباطها بطبيعة العلاقة بين المسلمين وأتباع الديانات الأخرى، ولما لها من أثر في بناء المجتمعات المتنوعة والمتعايشة(٢).

إذ إنَّ مقصود الشريعة من تنظيم العلاقة مع غير المسلمين هو حفظ النظام العام، وتحقيق العدل، ومنع الفتنة، وهو ما ينسجم مع مقاصد القرآن الكلية(٣)، كما أن الاختلاف الديني لا يُسوّغ الظلم ولا الإقصاء، بل يستدعي إقامة العدل والوفاء بالعهود قال ابن عاشور: » وأما رحمة الإسلام بالأمم غير المسلمين فإنما نعني به رحمته بالأمم الداخلة تحت سلطانه وهم أهل الذمة، ورحمته بهم عدم إكراههم على مفارقة أديانهم، وإجراء العدل بينهم في الأحكام بحيث لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم في الحقوق العامة» (٤).

ومما تقدم يمكن القول إنَّ نظرة الإسلام إلى التعددية تنبع من كونه يتبنى رؤية شاملة للحياة، بصفته آخر الرسائل السماوية، وخاتمة العقائد الإلهية، وكلمة الله الأخيرة الموجهة إلى البشر جمعاء، فهو وحده القادر على احتواء جميع المعتقدات تحت مظلته، والتعامل معها بمرونة وعمق في الفهم، ولهذا السبب، تميزت الحضارة التي انبثقت عن الإسلام بخصائص أثّرت في المسلمين ومن عاش في ظلهم، كما تركت بصمتها على مسيرة الإنسانية كلها، وهذه الخصائص تعبّر عن شمولية الرؤية، ووحدة الكيان، وأصالة الفكر والموقف، مع إتاحتها في الوقت نفسه مجالاً للإبداع المتنوع والمتعدّد والمتجدد»(٥).

(١) التعددية الدينية، للناصري، ص (٥٠).
(٢) ينظر، أحكام القرآن، لأبي بكر العربي، ٢ / ٤٦١، والتخلي عن التقليد والتحلي بالأصل المفيد، عمر العرباوي، ١٦٣.
(٣) ينظر، المقاصد الشريعة الإسلامية، لابن عاشور، ٣ / ٢٨٢.
(٤) التحرير والتنوير، لابن عاشور، ١٧ / ١٦٩.
(٥) استخلاص التصور السليم لمعاملة غير المسلمين، د. عباس الجراري، ٢ / ٦٣٠.

ومن هذا المنطلق تتبلور الرؤية الإسلامية تجاه التعددية في المجتمع، إذ تقرّ بوجودها بوصفها ظاهرةً إنسانية واجتماعية، وتعترف بمشروعيتها ضمن إطارٍ من الضوابط والقيم المنظمة التي تكفل توجيهها الوجهة السليمة، بما يمنع انحرافها إلى مسارات تؤدي إلى الإخلال بالانسجام المجتمعي أو إضعاف وحدة المجتمع وتكامله، وما قد يترتب على ذلك من تصاعد النزاعات وإثارة الصراعات والحروب وسفك الدماء بين البشر.

المبحث الثاني: سنّة الاختلاف في القرآن الكريم وحرية العقيدة

المطلب الأول: سنة الاختلاف في القرآن الكريم.

أولًا: الاختلاف بوصفه سنّة إلهية كونية:

يقرّر القرآن الكريم أن الاختلاف بين البشر في العقائد والأفكار والانتماءات سنّة إلهية ماضية، لا يمكن رفعها ولا تجاوزها؛ لأنها مرتبطة بحكمة الخلق وإرادة الله تعالى، وقد أوضحته الآية الكريمة قال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [1]، ففي هذه الآية دلالة بينة على أن الاختلاف بين الناس أمر حتمي لا مفر منه، وكل محاولة لفرض رأي أو موقف معين على الآخرين تؤدي إلى إفساد العلاقات، وبث الفرقة، وإشعال نار التعصب، ولهذا السبب أحال القرآن الكريم الفصل في الخلافات إلى الله وحده، مما يُغني الأطراف المختلفة عن التنازع والصراع، وعن استعمال كل الوسائل لإجبار الآخرين على الإذعان لآرائهم أو الإكراه على تقبل أفكارهم ومعتقداتهم، كما أن استمرار الاختلاف واقعٌ مقصود، لا طارئ ولا عارض [2].

وقد ذهب بعض أهل العلم في تأويل هذه الآية: أن معنى الآية يدل على أن الله تعالى لو أراد أن يجعل الناس على دين واحد لفعل، ولكنه شاء أن يخلقهم مختلفين، ابتلاءً واختبارًا؛ ليظهر أثر الاختيار والمسؤولية [3]، ويؤكد هذا المعنى الإمام الرازي: إذ يربط الاختلاف بمبدأ التكليف، ويرى أن وحدة الاعتقاد القهرية تُبطل معنى الثواب والعقاب [4].

(١) سورة هود، الآية ١١٨.
(٢) ينظر، الاعتقاد الخالص من الشك والانتقاد، لابن العطار، ص (٢٥١).
(٣) ينظر، معالم التنزيل في تفسير القرآن، للبغوي، ٤ / ٢٠٦، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ٩ / ١١٤،
(٤) ينظر، التفسير الكبير، للرازي، ١٨ / ٤١١.

ويُفهَم من ذلك أن القرآن الكريم لا ينظر إلى التعدد الديني بوصفه خللًا في النظام الكوني، بل يعدّه جزءًا من الحكمة الإلهية التي تقتضي التنوع في مسارات البشر واختياراتهم، إذ رفع الإسلام شأن التعامل مع الاختلاف إلى مستوى عالٍ من الأخلاق الراقية، فدعا المسلمين إلى الصبر على أذى من يشاركونهم العيش من أهل الكتاب، ومقابلته بالحلم والرفق، وجعل هذا النهج المتوازن مرتبطًا بالإيمان والتقوى قال تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (١). قال محمد رشيد رضا: » خوطب المؤمنون بذلك ليوطنوا أنفسهم على ما سيلقون من الأذى، والشدائد والصبر عليها حتى إذا لقوها وهم مستعدون لا يرهقهم ما يرهق من تصيبه الشدة بغتة فينكرها وتشمئز منها نفسه»(٢).

ثانيًا: دلالات الاختلاف في المنظور القرآني:

لا يُعدّ كلُّ اختلافٍ ظاهرةً سلبيةً بالضرورة، بل قد ينطوي في بعض صوره على مقاصد إيجابية وآثار تربوية بنّاءة، وهو ما يُمثّل إحدى الركائز الأساسية التي قرّرها القرآن الكريم وأوضحها ضمن منهجه الشامل والمتكامل في بناء الفكر وتنظيم العلاقات الإنسانية، فقد جاء في كثير من المواضع محمّلًا بدلالات إيجابية، خاصة حين يرتبط بغايات التعارف والتكامل، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾(٣).

ذهب ابن عاشور إلى: أنّ التعارف لا يتحقق إلا بوجود التعدد، وأن إلغاء الاختلاف يؤدي إلى إلغاء مقاصد الاجتماع الإنساني، ويؤكد أيضًا أن الخطاب في الآية موجه إلى الناس كافة، لا إلى المسلمين وحدهم، ممّا يدل على عالمية الرؤية القرآنية في معالجة قضايا التنوع البشري(٤).

ويُستفاد من هذا أن القرآن يؤسس لثقافة قبول التنوع الإنساني، بما في ذلك التنوع الديني، ضمن إطار يحفظ القيم العليا للمجتمع ويمنع الفوضى العقدية أو الأخلاقية.

(١) سورة آل عمران، آية، ١٨٦.
(٢) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ٤ / ٢٢٤.
(٣) سورة الحجرات، من الآية، ١٣.
(٤) ينظر، التحرير والتنوير، لابن عاشور، ٢٦ / ٢٥٨.

ثالثًا: الفرق بين الاختلاف المشروع والاختلاف المذموم:

يفرّق القرآن الكريم بين نوعين من الاختلاف: اختلاف تنوّع، واختلاف تضاد، فالأول: مشروع ومقبول؛ لأنه نابع من تنوع الفهم والاختيار، أما الآخر: فمذموم؛ لأنه قائم على البغي والعدوان، قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾[1].

ويبين أبو حيان أن ذمّ الاختلاف في هذه الآية لا يعود إلى أصل التعدد، وإنما إلى الدافع إليه، وهو البغي والهوى[2]، ومن هذا القول يتبين أن القرآن الكريم لا يذم الاختلاف لذاته بوصفه ظاهرة إنسانية وسنة كونية، وإنما يتجه الذم فيه إلى ما يترتب عليه من آثار سلبية، كالتنازع، والفرقة، والعدوان، والخروج عن مقتضى الحق[3]، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [4]،

المطلب الثاني: حريَّة العقيدة في الخطاب القرآنيَّ.

لا شكَّ بأنَّ القرآن الكريم قد أعطى الحرية الكاملة لاختيار العقيدة، ولكنه بذات الوقت وجَّه دعوات قرآنية من أجل إخراج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الشرك إلى التوحيد ومن الكفر إلى الإيمان بالله سبحانه وتعالى، وبناءً على ذلك يمكن بيان هذا الأمر فيما يأتي:

أولًا: أصل مبدأ حرية العقيدة في القرآن الكريم:

يُعدّ مبدأ حرية العقيدة من القواعد الكلية التي أرساها القرآن الكريم ضمن منظومته التشريعية والفكرية، ويأتي في مقدمتها قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[5]، ذكر ابن الجوزي في تفسيره أن معنى الآية يتمثل: في أن الإيمان لا يصح إلا عن قناعة واختيار؛ لأنَّ الإكراه لا يُنتج إيمانًا حقيقيًّا، وإنما يولد نفاقًا ظاهريًا لا أثر له في الباطن [6]، وأكد هذا المعنى ابن كثير إذ يقول: » لا تكرهوا أحدًا على الدخول في دين الإسلام فإنّه بين واضح جلي دلائله وبراهينه لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه

(١) سورة آل عمران، من الآية، ١٩.
(٢) ينظر، البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان، ٣ / ٧١.
(٣) ينظر، سماحة الإسلام في معاملة غير المسلمين، د. عبد الله اللحيدان، ص (١٢).
(٤) سورة هود، آية، ١١٨.
(٥) سورة البقرة، من الآية، ٢٥٦.
(٦) ينظر، زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي: ١ / ٢٣١.

على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرهاً مقسوراً» [١]، وقال ابن عاشور: » ونفي الإكراه خبر في معنى النهي، والمراد نفيُ أسبابِ الإكراه في حُكم الإسلام، أي: لا تُكرهوا أحدًا على اتباع الإسلام قسراً، وجيء بنفي الجنس لقصد العموم نصّاً، وهي دليل واضح على إبطال الإكراه على الدين بسائر أنواعه؛ لأنَّ أمر الإيمان يجري على الاستدلال والتمكين من النظر وبالاختيار»[٢].

وتكمن دلالة الآية أن النهي عن الإكراه جاء في سياق عملي واقعي، لا تنظيرٍ مجرد، مما يدل على أن حرية الاعتقاد مبدأ تطبيقي في المجتمع الإسلامي الأول، كما أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فيبقى الحكم شاملًا لكل صور الإكراه في الدين[٣].

ثانياً: حدود الحرية العقدية في التصور القرآني:

تُعدُّ حرية العقيدة من أبرز القضايا التي تناولها القرآن الكريم، إذ رسّخ مبدأ الاختيار في الإيمان، ولكن على الرغم من إقرار القرآن بحرية الاعتقاد، إلا أنه يضع لهذه الحرية ضوابط تحفظ النظام العام وتحول دون الفتنة والعدوان، فحرية العقيدة لا تعني الفوضى العقدية ولا الاعتداء على المقدسات أو إثارة الصراعات، قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[٤].

قال ابن عطية في تأويل هذه الآية: » أي فحقه الإيمان وحقه الكفر، ثم عبر عن ذلك بلفظ الأمر الزماً وتحريضاً، ومن حيث للإنسان في ذلك التكسب الذي به يتعلق ثواب الإيمان وعقاب الكفر [٥]. وقد وضَّح الإمام الرازي في تفسيره: أن هذه الآية أن بيان لحرية الاختيار من حيث الأصل، مع بقاء المسؤولية الأخروية، وهو ما يحقق التوازن بين الحرية والتكليف [٦]، كما بيَّن ابو حيان أن الآية: لا تحمل معنى الإباحة المطلقة، بل تقرر مبدأ الاختيار في إطار

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ١ / ٦٨٢.
(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور: ٣ / ٢٦.
(٣) ينظر، مناهل العرفان في علوم القرآن، للزرقاني: ٢ / ٤٠٦، والتفسير الوسيط، للزحيلي: ٣ / ٢٩٨٤، والتعايش مع غير المسلمين في المجتمع المسلم، منقذ السقار، ص (٩).
(٤) سورة الكهف، من الآية، ٢٩.
(٥) ينظر، المحرر الوجيز، لابن عطية، ٣ / ٥١٣.
(٦) ينظر، مفاتيح الغيب، للرازي، ٢١ / ٤٥٨.

الحساب والجزاء[١].

وبذلك يتضح أن الخطاب القرآني يجمع بين احترام حرية الإنسان في الاعتقاد، وتحميله مسؤولية اختياره، دون لجوء إلى الإكراه أو القسر، كما أن حرية العقيدة لا تعني الإضرار بالمجتمع في نشر الفوضى والفتنة، بل حذرت من إثارة النزاعات قال تعالى: ﴿وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾[٢]، فهذه الآية جاءت حماية للمشاعر ومنعاً للتصعيد، قال القرطبي: » حكمها باق في هذه الأمة على كل حال، فمتى كان الكافر في منعة وخيف أن يسب الإسلام أو النبي عليه السلام أو الله عز وجل، فلا يحل لمسلم أن يسب صلبانهم ولا دينهم ولا كنائسهم، ولا يتعرض إلى ما يؤدي إلى ذلك؛ لأنه بمنزلة البعث على المعصية، كما قال: » في هذه الآية أيضا ضرب من الموادعة، ودليل على وجوب الحكم بسد الذرائع، وفيها دليل على أن المحق قد يكف عن حق له إذا أدى إلى ضرر يكون في الدين[٣].

المبحث الثالث: أسس التعامل وتنوع الخطاب القرآني مع الآخر

المطلب الأول: أسس التعامل مع الآخر

أولًا: البرّ والقسط مع غير المسلمين:

في هذا الإطار يصبح بمقدور جميع الفئات الوطنية والدينية، مهما تنوعت رؤاها الأيديولوجية واختلفت برامجها، أن تجد منصات مشتركة للقاء والتعاون، بل والتحالف على المستويين السياسي والاجتماعي، بهدف بناء كيان اجتماعي قائم على الرحمة، والعدالة الاجتماعية، والعلاقات الأخلاقية، ويقاوم الاستغلال، والاستبداد، وجميع أشكال الاستعمار والتبعية، ولا يوجد إطار مؤهل لتحقيق هذه الرؤية الحضارية الشاملة، التي تضمن تسخير قدرات الإنسان وطاقاته، وتؤسس لنسق إنساني للتفاعل الاجتماعي يحل فيه التعاون محل الاستغلال والتسلط، غير الإسلام[٤]، وتعد العلاقة مع غير المسلمين من القضايا التي تناولها القرآن الكريم، فقد أسس لهذه العلاقة على مبادئ أخلاقية وإنسانية، بعيدًا عن الاعتبارات الدينية الضيقة أو النزعات

(١) ينظر، البحر المحيط، لابي حيان، ١٥ / ٣٠٧.
(٢) سورة الأنعام، من الآية، ١٠٨.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ٧ / ٦١.
(٤) ينظر: محاور إسلامية، راشد الغنوشي، ص (٩٢)، والحوار مع الآخر، محمد التسخيري، ص (٢٨).

الانتقامية، قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾(١)، وتتضمن هذه الدلالة تأصيلًا بديعًا للأسس التي ينبغي أن تقوم عليها التعددية الدينية في المجتمع، بحيث تُبنى العلاقة بين المسلمين وغيرهم على مبادئ العدل والإحسان، بما يحقق التعايش الإنساني والاستقرار المجتمعي، وهذا ما أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم إذ قال: » ألا من ظلم معاهدا وانتقصه وكلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس منه فأنا حجيجه يوم القيامة»(٢)، ومن أعظم أنواع البر دعاء الرسول - عليه الصلاة والسلام - لغير المسلمين، قيل: يا رسول الله ادع على المشركين قال: » إني لم أبعث لعانا، وإنما بعثت رحمة»(٣).

هذه الروح الإنسانية السامية هي التي وجَّهت اجتهادات الفقهاء والعلماء المسلمين، فوضعوا أسسًا وقواعد تنظم علاقة المسلمين بغيرهم، ومن آثار هذا الاهتمام ظهور ثروة معرفية كبرى من تلك القواعد والتنظيمات التي تحقق العدالة، وتحدد لكل فرد حقوقه وواجبات، كما تتيح مجالًا واسعًا للتفاهم المشترك والتعاون البنَّاء بين أبناء المجتمع الواحد(٤).

ثانيًا: الحوار بالحكمة والمجادلة بالتي هي أحسن:

لقد حث الإسلام في بيان أدب الاختلاف، وكيفية التعامل مع الآخرين بروح متسامحة ونقية، تمهّد الطريق للحوار المتوازن والعلاقات السليمة بين فئات المجتمع، وتتجنب الممارسة الجدلية العقيمة في الخصومة، والإفراط في تأجيج مشاعر الحقد والكراهية والانتقام، ويشكّل ذلك مرتكزًا أساسيًا تُبنى عليه وحدة المجتمع وتماسكه ووحدة أبنائه، في إطار من التعددية الإيجابية، والتي تجاوزت في دعوتها إلى قيامها وتجسيدها كواقع حي وملموس في المجتمع، مرحلة الإقرار والاعتراف فقط، إلى درجة التشجيع والمبادرة الفاعلة من أجل تأسيسها وتهذيبها وفق رؤية حضارية، تتسم بإنسانيتها وانفتاحها، وتواصلها الخلّاق مع الآخرين بأسلوب قائم على

(١) سورة الممتحنة: الآية ٨.

(٢) سنن أبي داود، لأبي داود، تحقيق محمد محي الدين، ٩ / ٣٤٤، رقم الحديث (١٨٧٣١) حديث صحيح.

(٣) صحيح مسلم، لأبي حسين النيسابوري، كتاب البر والصلة والآداب، باب لعن الدواب وغيرها، ٤ / ٢٠٠٦، رقم الحديث (٢٥٦٩).

(٤) ينظر، معاملة غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، يوسف القرضاوي، ص (٥٨٥)، و الإسلام وقضايا العصر، د. إبراهيم الدبو وأخرون، ص (١٩٨)، ونظرات استشرافية في فقه العلاقات الإنسانية بين المسلمين وغير المسلمين، د. حسن بن محمد، ص (١١).

الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، وهو ما عبّرت عنه الآية الكريمة.، قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(١).

إنَّ الحكمة في الآية تشمل الحجة العقلية والنقلية معًا، وأن الموعظة الحسنة تُخاطب الوجدان، أما المجادلة بالتي هي أحسن فتتعلق بأسلوب الحوار، لا بمجرد مضمونه، قال الماتريدي: » أن اللّه تعالى أنشأ هذا اللسان وجعله ترجمانًا بين الخلق، به يفهم بعضهم من بعض، وبه يقضي الحوائج بعضهم من بعض، وبه قوام معاشهم ومعادهم، وبه بعث الرسل والكتب جميعًا، فإذا كان كذلك فالواجب ألا يستعمل إلا في الخير والحكمة، ولا ينطق به إلا ما هو أحسن وأصوب(٢)، وأشار ابن عاشور إلى أن هذه الآية رسمت منهج الدعوة الإسلامية في بعدها الإنساني، وأغلقت الباب أمام العنف الفكري أو الإكراه المعنوي(٣).

ويُستفاد من هذا أن التعددية الدينية في القرآن لا تُدار بالصدام، بل بالحوار المنضبط الذي يحفظ كرامة الإنسان، ويُظهر قوة الحجة دون إساءة أو تحقير.

ثالثًا: التفريق بين المسالم والمعتدي:

يضع القرآن الكريم معيارًا دقيقًا في تحديد طبيعة العلاقة مع الآخر الديني، يقوم على التمييز بين من يعيش حالة سلم، ومن يباشر العدوان، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾(٤).

فسر ابن عطية هذه الآية: على أن القتال مشروع للدفع لا للاعتداء، وأن النهي عن الاعتداء يشمل كل تجاوز لحدود الشرع، سواء في القتال أو في التعامل العام (٥)، وقال الرازي: » إنَّ القتال على وجه المقاتلة ابتداء، يقتضي كونهم فاعلين للقتال، فأما المستعد للقتال والمتأهل له قبل إقدامه عليه، فإنه لا يوصف بكونه مقاتلًا إلا على سبيل المجاز(٦).

وأضاف بعض أهل العلم في معرض تفسير هذه الآية: إذ تُعدّ ضابطًا تفسيريًا لفهم آيات الجهاد، وتمنع إسقاطها على غير مواضعها، وأن المأذون به شرعا هو قتال من باشر بالقتل

(١) سورة النحل، من الآية، ١٢٥.
(٢) تأويلات أهل السنة، للماتريدي، ٧ / ٦٢.
(٣) ينظر، التحرير والتنوير، لابن عاشور، ١٤ / ٢٦٩.
(٤) سورة البقرة، الآية، ١٩٠.
(٥) ينظر، المحرر الوجيز، لابن عطية، ١ / ٢٦٢.
(٦) ينظر، مفاتيح الغيب، للرازي، ٥ / ٢٨٨.

وأعتدى، وأنه مقيد بضوابط العدل، وعدم تجاوز الحد، بحيث لا يقصد به الاعتداء ابتداءً، وإنما دفع الصائل وكف عدوانه في إطار ما شرعه الله تعالى من أحكام منضبطة تحقق العدل وتمنع الظلم [١]، ويفهم من توجيه الرازي أنه لم يقتصر على بيان المعنى المباشر، بل أنّه وظَّف قوله تعالى: ﴿إِنَّما يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ﴾[٢]، إذ قال: » وإنما ينهاكم عن تولي هؤلاء، وهذا رحمة لهم لشدتهم في العداوة»[٣].

المطلب الثاني: تنوع الخطاب مع أهل الكتاب.

أولًا: مفهوم أهل الكتاب في القرآن الكريم:

يطلق القرآن الكريم وصف «أهل الكتاب» على اليهود والنصارى الذين أنزلت عليهم كتب سماوية قبل القرآن، وهو توصيف قرآني له دلالته العقدية والتشريعية، قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾[٤]، يُفهم من الآية أن الخطاب القرآني يعترف بوجود كتاب سماوي سابق، مع بيان ما دخله من تحريف وكتمان.

وقرر ابن الجوزي أن إطلاق هذا الوصف يتضمن معنى التذكير بالحجة؛ لأنَّ من كان صاحب كتاب أولى بالاستجابة للوحي الخاتم [٥]، ويقول الرازي: » أخفوا صفة محمد صلى الله عليه وسلم، ثم إن الرسول صلى الله عليه وسلم بين ذلك لهم، وهذا معجز؛ لأنه عليه الصلاة والسلام لم يقرأ كتابًا ولم يتعلم علمًا من أحد، فلما أخبرهم بأسرار ما في كتابهم كان ذلك إخبارًا عن الغيب فيكون معجزًا، ثمَ قال: والفائدة في ذكر ذلك أنهم يعلمون كون الرسول عالما بكل ما يخفونه، فيصير ذلك داعيا لهم إلى ترك الإخفاء لئلا يفتضحوا»[٦]، ويضيف المراغي: أن الوصف يحمل في طياته بعدًا حجاجيًا، لا إقصائيًا؛ حيث يخاطبهم القرآن بما يعترفون به من أصل الوحي[٧].

(١) ينظر، تيسر الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي، ٨٩، والتحرير والتنوير، لابن عاشور، ٢ / ٢٠١.
(٢) سورة الممتحنة، من الآية (٩).
(٣) مفاتيح الغيب، للرازي، ٢٩ / ٥٢١.
(٤) سورة المائدة: من الآية ١٥.
(٥) ينظر، زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي، ١ / ٥٢٩.
(٦) مفاتيح الغيب، للرازي، ١١ / ٣٢٧.
(٧) ينظر، تفسير المراغي، للمراغي، ٦ / ٧٩.

ثانيًا: تنوع الخطاب القرآني تجاه أهل الكتاب:

يتسم الخطاب القرآني تجاه أهل الكتاب بالتنوع؛ تبعًا لتنوع مواقفهم من الدعوة الإسلامية، فقد ورد في القرآن مدح لفئة منهم، كما في قوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾(١).

فسر ابن عطية هذه الآية على أن القرآن يرفض التعميم في الحكم، ويؤسس لمبدأ التفريق بين الأفراد والجماعات بحسب الموقف والسلوك (٢)، ويؤكد ذلك ما ذهب إليه ابن عاشور من أن هذا التنوع في الخطاب يُعدّ أساسًا قرآنيًا للعدل في الحكم على الآخر الديني(٣)، ويظهر من خلال تفسير الخازن لهذه الآية إذ قال: » والتقدير ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة ومنهم أمة مذمومة غير قائمة فترك ذكر الأمة الأخرى اكتفاء بذكر أحد الفريقين وهذا على مذهب العرب أن ذكر أحد الضدين يغني عن ذكر الآخر»(٤)، وقد أبرز ابو السعود في معرض تفسيره للآية جانبًا دلاليًا يتمثل في أن: » والمرادُ بنفي المساواةِ نفيُ المشاركة في أصل الاتصاف بالقبائح المذكورةِ لا نفيُ المساواةِ في مراتب الاتصافِ بها مع تحقق المشاركة في أصل الاتصافِ بها أي ليس جميعُ أهل الكتابِ متشاركين في الاتِّصافُ بما ذُكر من القبائح والابتلاءِ بما يترتب عليها من العقوبات»(٥).

المطلب الثالث: ضوابط العلاقة مع أهل الكتاب في ضوء القرآن والواقع المعاصر.

أولًا: ضوابط العلاقة مع أهل الكتاب في ضوء القرآن:

استخلص المسلمون من دلالات القرآن الكريم أن التعددية تمثل الآلية الكفيلة بتجاوز إشكاليات الصراع، وتباين الرؤى والأفكار والمعتقدات، وهي لا تعني في المحصلة النهائية الخضوع لنمط واحد من التفكير والسلوك، وإذابة الجميع في بوتقة هذا النمط، كما لا تعني التنازل عن الحق أو توزيعه بين المتعايشين بنسب متساوية وفق مفهوم التعددية السائد في

(١) سورة آل عمران، من الآية (١١٣).
(٢) ينظر، المحرر الوجيز، لابن عطية، ١ / ٤٣٢.
(٣) ينظر، التحرير والتنوير، لابن عاشور، ٤ / ٤٨.
(٤) لباب التأويل في معالم التنزيل، للخازن، ١ / ٢٨٧.
(٥) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب العزيز، لأبي السعود، ٢ / ٧٣.

السياق الغربي، بل إنها تعني احتفاظ كل طرف بخصائصه الذاتية ومقومات وجوده، وممارسته لنشاطه الديني أو المذهبي أو الفكري، في إطار الحقوق والواجبات العامة التي كفلها الإسلام بمضامينها المتوازنة، والتي تحظر على أي طرف، مهما بلغت قوته عُددًا وعتادًا، أن يستولي على حقوق الآخرين أو يخل بأمن المجتمع(١)، والآيات القرآنية في هذا المعنى كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٢)، وكذلك قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (٣)، وبناءً على ما تقدّم، يتعيَّن علينا، مسلمين وغير مسلمين، أن نخطو الخطوة الأولى نحو تطوير علاقات نوعية جديدة، في إطار التعددية التي نصبو إلى تحقيقها، وتتمثّل هذه الخطوة في امتلاك الإرادة والعزم على تنقية ذاكرتنا الجماعية من الرواسب التي لا تزال عالقة بها، بغية فتح الطريق أمامنا للانتقال من منطق الصراع والنزاع إلى منطق الحوار والتعاون، انطلاقًا من القاعدة القرآنية التي تؤسس لهذا التحول العلاقات الإنسانية كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾(٤)، ورأى الإمام الرازي بأن هذه الآية تمثل قمة في الخطاب الحواري؛ إذ تنطلق من أرضية مشتركة، لا من منطلق الإقصاء أو الإدانة (٥)، وأشار أبو السعود إلى أن هذه الآية تُعدّ نموذجًا قرآنيًا للحوار الديني القائم على المبالغة في الإرشاد وحسن التدرج في المحاجة (٦).

ثانيًا: التعايش مع أهل الكتاب في الواقع المعاصر:

يمثل فهم الخطاب القرآني تجاه أهل الكتاب مدخلًا أساسيًا لبناء علاقات إنسانية متوازنة في المجتمعات المعاصرة المتعددة دينيًا، فالقراءة المقاصدية للنص القرآني تُظهر أن الأصل في العلاقة هو السلم والتعاون على الخير، ما لم يقع عدوان أو إخلال بالنظام العام(٧).

وقد جسد القرآن الكريم هذه الصورة بآيات عدة ومنها قوله تعالى: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ

(١) ينظر، الحوار مع الآخر، محمد علي التسخيري، ص (٦٨).
(٢) سورة آل عمران، من الآية (٦٤).
(٣) سورة الكافرون، آية (٦)
(٤) سورة آل عمران، من الآية (٦٤).
(٥) ينظر، مفاتيح الغيب، للرازي، ٨ / ٢٥١.
(٦) ينظر، إرشاد العقل السليم، لأبي السعود، ٢ / ٤٧.
(٧) ينظر، فقه الاختلاف، طه جابر العلواني، ص (٦٧).

يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[1].

ويُعد النبي محمد - ﷺ - نموذجًا فريدًا في التعامل مع أهل الكتاب، حيث كفل لهم حقوقهم الدينية والإنسانية، والتزم بحماية مواثيقهم وعهودهم، واشترط عليهم وشروط لهم، كما أوفى بكل التزاماته تجاههم، وأوصى بهم خيرًا ما داموا يقيمون في ظل الحكم الإسلامي، وعلى هذا النهج، سار المسلمون في علاقاتهم مع أتباع الديانات الأخرى، حيث كان الدين هو الضابط الأساسي لسلوكهم، فلم يُعرف عنهم ممارسات تُستنكر في مجال التسامح مع المخالفين، أو في كفّ الأذى عنهم، طالما كانت العلاقة قائمة على عهد، أو ذمة، أو مصلحة متبادلة. ومن الجدير بالذكر أن هذه المبادئ في التعامل مع غير المسلمين لا تُعرف لدين، أو شريعة، أو أمة أخرى غير دين الإسلام وشريعته وأمته[2]، ومن الشواهد الدالة على ذلك ما كتبه الرسول ﷺ لنصارى نجران من عهدٍ تضمّن إقرار جملةٍ من الحقوق الدينية والمالية والاجتماعية لأصحاب تلك الديانات، ممن اعترف بهم ضمن البنية السياسية للدولة الإسلامية، بما يعكس مبدأ التعايش والتنظيم الحقوقي في المجتمع الإسلام، إذ تضمنت هذه الوثيقة: » ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد ﷺ على أنفسهم، وملتهم، وأرضهم وأموالهم، وغائبهم، وشاهدهم، وعشيرتهم، وبيعهم»[3].

المبحث الرابع: التعددية الدينية ومقاصد القرآن في إدارة الاختلاف

المطلب الأول: مفهوم الاختلاف في الرؤية القرآنية

يُعدّ الاختلاف سنة كونية وقانونًا ربانيًا ماضيًا في الخلق، وقد قرر القرآن الكريم هذا المعنى في مواضع متعددة، منها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾[4]، ومن هذا يفهم أن الاختلاف ظاهرة محتومة في المجتمعات البشرية، ولا يمكن تجاوزها أو إلغاؤها، وكل محاولة لفرض رأي أو موقف معين بالقوة على الآخرين تؤدي غالبًا إلى إشاعة الفساد، وبث الفرقة، والانزلاق نحو التعصب الأيديولوجي، وبناءً على هذا المبدأ، أحال القرآن

(١) سورة الممتحنة: الآية (٨).
(٢) ينظر، وجوب تطبيق الشريعة الإسلامية في كل عصر، صالح السدلان، ص (٢٣٣).
(٣) زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم الجوزية، ٣ / ٨٠٠.
(٤) سورة هود: الآية ١١٨.

الكريم الفصل في قضايا الخلاف النهائية إلى الله وحده، وهذا التوجيه القرآني يُغني الأطراف المختلفة عن اللجوء إلى الصراع، أو السعي بكل الوسائل لإجبار المخالفين على التسليم بآرائهم أو قبول معتقداتهم قسرًا، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[١]، ثم قال ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[٢]، وأكد ابن القيم أن الاختلاف متى ما خرج عن حدّه المشروع تحوّل إلى نزاع مفسد، أما إذا انضبط بضوابط الشرع فإنه يكون مصدر ثراء معرفي[٣].

المطلب الثاني: مقاصد القرآن في التعامل مع التعددية الدينية.

تتجلى مقاصد القرآن في إدارة التعددية الدينية في حفظ الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال[٤]، وهي مقاصد عامة لا تختص بالمسلمين وحدهم، قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[٥]، وهي آية محكمة تُقرّ مبدأ حرية الاعتقاد ضمن النظام العام، قال ابن كثير: » لا تكرهوا أحدًا على الدخول في دين الإسلام، فإنه بين واضح، جلي دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام، وشرح صدره، ونور بصيرته، دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره، فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرهًا مقسوراً«[٦]، وقرر ابن عاشور: أن حرية الاعتقاد شرط لتحقيق مقصد الابتلاء، وهو دليل واضح على إبطال الإكراه على الدين بسائر أنواعه؛ لأن أمر الإيمان يجري على الاستدلال، والتمكين من النظر، وبالاختيار [٧].

(١) سورة آل عمران: من الآية (٥٥).
(٢) سورة النحل: من الآية (١٢٤).
(٣) ينظر، مفتاح دار السعادة، لابن القيم الجوزية، ٢ / ١٠٧٠.
(٤) ينظر، العروة الوثقى في ضوء الكتاب والسنة، سعيد القحطاني، ص (٥٥).
(٥) سورة البقرة: من الآية ٢٥٦.
(٦) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ١ / ٥٢١.
(٧) ينظر، مقاصد الشريعة الإسلامية، لابن عاشور، ٩٣.

المطلب الثالث: ضوابط قرآنية لإدارة الاختلاف الديني

وضع القرآن الكريم ضوابط أخلاقية وتشريعية لإدارة الاختلاف، من أبرزها العدل، والإحسان، والحوار بالحسنى، إذ تشكّل الأسس التي تقوم عليها التعددية الدينية داخل المجتمع الإسلامي، حيث أقرّها الإسلام بوصفها قانوناً اجتماعياً ملزماً لاستدامة هذا المجتمع وتنظيمه، وقد دعا الإسلام المسلمين إلى إدراكها كاملة في الحقوق والواجبات بينهم وبين سائر أفراد المجتمع من غير المسلمين، باعتبار ذلك مبدأً تعاقديًا وأخلاقيًا حاكمًا للعلاقات الاجتماعية المشتركة، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[1]، وقد استدل القرطبي في هذه الآية: » على أن كفر الكافر لا يمنع من العدل عليه، وأن يقتصر بهم على المستحق من القتال والاسترقاق، وأن المثلة بهم غير جائزة وإن قتلوا نساءنا وأطفالنا وغمونا بذلك، فليس لنا أن نقتلهم بمثلة قصدا لإيصال الغم والحزن إليهم»[2]، وقال البيضاوي: » لا يحملنكم شدة بغضكم للمشركين على ترك العدل فيهم فتعتدوا عليهم بارتكاب ما لا يحل، كمثلة وقذف وقتل نساء وصبية ونقض عهد تشفياً مما في قلوبكم»[3].

ويمكن أن تتحقق المعايشة القائمة على العدل مع المواطنين من غير المسلمين من خلال مظهرين أساسيين: أولاً: المساواة أمام القضاء والقانون دون محاباة أو تمييز، وثانيًا: المساواة في فرص التوظيف والعمل، وسائر الفرص والظروف التي تُتيح المجال أمام الجميع للقيام بالواجبات والتكاليف والأعباء على نحو ميسّر، دون تمييز أو تفرقة، قال محمد التسخيري: ومن خلال تحليل طبيعة تعامل دار الإسلام مع غير المسلمين يتجلى البعد الإنساني لعنصر العدل، وهو يفسر أيضًا موقف الإسلام المساند للمستضعفين والمحرومين أين ما كانوا[4]، وقد وضّح الميداني مبدأ المعايشة إذ قال: » أما النظام المشترك العام الذي تحكمه علاقات مدنية وإدارية واقتصادية وأمنية فالجميع فيه سواء، وهذا أمرٌ تتفق عليه نظريات الحقوق الدولية جميعها»[5].

(١) سورة المائدة: من الآية ٨.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ٦ / ١١٠.
(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي، ٢ / ١١٧.
(٤) الحوار مع الآخر، محمد التسخيري، ص (٢٩).
(٥) أجنة المكر الثلاث، للميداني، ص (٦٩٣).

المبحث الخامس: التحديات المعاصرة للتعددية الدينية في ضوء الخطاب القرآني

المطلب الأول: صراع الهوية والدين

تواجه المجتمعات المعاصرة تحديًّا كبيرًا في صيانة التعددية الدينية بسبب صراعات الهوية، التي غالبًا ما تُوظف الدين كأداة سياسية، لذلك فأن الفهم السطحي للنصوص القرآنية يؤدي إلى سوء استثمار الاختلاف الديني، وإلى نشوء نزاعات غير ضرورية[١]، إذ تشكِّل الهوية المحور الأساسي للمواطنة في المجتمع الإسلامي، الذي يتسم بالتعددية الدينية والفكرية. ويعني بناء هذه الهوية تكامل عدد من عوامل التكوين والتوحيد، فضلاً عن مجموعة من العناصر المشتركة التي تجمع المنتسبين إليها، حيث تمثل هذه الهوية وعاءَ الضمير الجمعي لأي تجمع بشري، وتكاد تكون القوة الدافعة لأي نشاط اجتماعي أو اقتصادي أو سياسي يصدر عن ذلك التجمع، كما يُعد هذا النشاط من أبرز المظاهر التي تميز هذا التكتل عن غيره من التكتلات[٢].

من المؤكد أن التمسك الواعي بالهوية، يؤدي إلى تمكين أبناء الوطن من تفضيل المصلحة العامة على المصالح الفردية أو الفئوية، ويعزز لديهم الإحساس بالمسؤولية، والالتزام بالواجب، والثقة بالآخرين حتى مع اختلاف المبادئ والمعتقدات، وعندئذٍ، تصبح التعددية الممارسة بوعي واختيار مسارًا إيجابيًا يسد الفجوة بين الأطراف، ويزيل الشكوك حول صدق الانتماء والولاء للوطن، وهي شكوك يروج لها أعداء الوطن بهدف ترسيخ قناعات تؤدي إلى الفرقة والانقسام وتشويه منظومة القيم في المجتمع السليم، الذي يهيئ لأبنائه، على اختلاف عقائدهم، فرص الاندماج والإبداع دون انتقاص من خصوصياتهم أو إهدار لحقوقهم.

المطلب الثاني: التحديات القانونية والسياسية.

إن من أبرز التحديات القانونية والسياسية المعاصرة محاولات سن قوانين أو سياسات تُقيّد حرية الاعتقاد، أو تُحابي دينًا على آخر، فالقرآن وضع ضوابط لإدارة الاختلاف، عبر العدل والمساواة، وهي أساس لأي تشريع مدني حديث في المجتمعات المتعددة[٣]، إذ تقوم النظرة الموضوعية إلى التعددية الدينية على ضرورة دراسة أساليب تطبيقها وممارسة المسلمين لها عبر

(١) ينظر، فقه الاختلاف، طه جابر العلواني، ص (١١٢).
(٢) ينظر: معاملة غير المسلمين في الإسلام، عباس الجراري، ص (٦٤٦)
(٣) ينظر: سنن الاختلاف، لعبد الكريم بكار، ص (١٠٢).

الأدوار والمراحل التاريخية المختلفة، وذلك بعد أن تأسست قواعدها الدينية والتنظيمية في كل من القرآن الكريم والسنة النبوية، وما تفرع عنهما من تراث فقهي لا يزال قائمًا ومؤثرًا.

وإن التعددية الحقيقية في المجتمعات المعاصرة تتطلب تطبيق مبادئ القرآن على مستوى الحقوق والواجبات، وليس مجرد التسامح الظاهري(١).

ومن هذا المنطلق، يقع على عاتق المسلمين وغير المسلمين على السَّواء ضرورة اتخاذ الخطوة الأولى نحو تطوير علاقات نوعية جديدة في إطار التعددية المنشودة، وتتمثل هذه الخطوة في امتلاك الإرادة والتصميم على تنقية الذاكرة الجماعية مما يعلق بها من رواسب تاريخية، وذلك بهدف فتح الطريق وتمهيده للانتقال من منطق الصراع والنزاع إلى منطق الحوار والتعاون، انطلاقًا من القاعدة القرآنية المؤسسة لهذا التحول قوله تعالى: ﴿قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ أَلَاّ نَعْبُدَ إِلَاّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾(٢).

المطلب الثالث: دور التربية والثقافة في مواجهة التحديات.

يُعد التعليم والتربية الدينية المتوازنة من أهم آليات مواجهة التحديات المعاصرة للتعددية الدينية، قال محمد عمارة «إن القرآن الكريم يدعو إلى العلم والحوار، ويفسّر النصوص بحكمة، مما يسهم في إعداد أجيال قادرة على احترام الاختلاف دون التفريط بالعقيدة» (٣).

إنَّ الإعلام والثقافة الشعبية يلعبان دورًا مهمًا في تشكيل وعي الجماهير تجاه الآخر الديني، ويجب أن يكون ذلك مبنيًا على فهم قرآني دقيق يحترم الثوابت والمقاصد (٤)، وقال الميداني: » ومن الثقافات أنواع خاصة بأديان الأقليات غير المسلمة، والدول الإسلامية تسمح لهذه الأقليات بأن تنشئ ما تشاء من مؤسسات تعليمية خاصة بأبناء ملة كل منها، لتعليمهم ثقافاتهم الدينية الخاص»(٥).

(١) ينظر: الموضوعات الكبرى في القرآن، لفضل الرحمن، ٢١٣.
(٢) سورة آل عمران، من الآية (٦٤).
(٣) الإسلام والتعددية، لمحمد عمارة، ص (٧٦).
(٤) ينظر: النبأ العظيم، لعبد الله دراز، ص (٢٤٥).
(٥) أجنة المكر الثلاث، للميداني، ص (٦٩٣).

الخاتمة

بعد هذه المسيرة في كتب التفسير والعقيدة والفكر والبحث عن موضوع التعددية الدينية في الخطاب القرآني من منظور موضوعي، مستعرضًا كيفية تعامل القرآن مع الاختلاف الديني في سياق النصوص والمقاصد توصل البحث إلى جملة من النتائج ولعل من أهمها.

١. أظهرت الدراسة أن التعددية الدينية ليست طارئة على الواقع الإنساني، بل هي جزء من سنن الخلق التي أقرتها الحكمة الإلهية.

٢. قرّ الإسلام بوجود التعدد الديني انسجامًا مع إقراره بسُنّة الاختلاف بين البشر، وما أودعه الله في الإنسان من قدرةٍ على التمييز والاختيار.

٣. بين القرآن الكريم أهمية التعددية وكيفية التعامل مع أهل الكتاب من منظور إسلامي موضحًا تنوع المواقف بين المدح والذم، مع التأكيد على أن ضوابط العلاقة معهم قائمة على التعايش السلمي والعدل.

٤. الاستنتاج أن التعددية الدينية، وفق الرؤية القرآنية، تمثل قيمة إنسانية وأخلاقية وعقدية، ويجب إدارتها وفق الضوابط الشرعية والمقاصد القرآنية لضمان السلم الاجتماعي والاحترام المتبادل.

٥. تتجلى سماحة الإسلام في انسجامها مع عالميته وواقعيته؛ إذ إنّ الرسالة الموجَّهة إلى الإنسانية جمعاء لا يمكن أن تتحقق مقاصدها إلا بما تتسم به من يسرٍ ومرونةٍ تراعي طبيعة البشر وتنوّع ثقافاتهم وعاداتهم.

ثبت المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.

١. أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها، عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي (١٤٢٥هـ)، دار القلم – دمشق، ط٨، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

٢. أحكام القرآن، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت ٤٥٨ هـ)، دار الذخائر، ط١، ١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م.

٣. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (ت ٩٨٢هـ)، دار إحياء التراث العربي – بيروت، (د . ت).

٤. الإسلام والتعددية، محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.

٥. الإسلام وقضايا العصر، د، إبراهيم الدبو وآخرون، دار المناهج، عمّان، ٢٠٠٠م.

٦. الاعتقاد الخالص من الشك والانتقاد، علي بن إبراهيم بن داود بن سلمان أبو الحسن، علاء الدين ابن العطار (ت ٧٢٤هـ)، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ط١، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.

٧. البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (ت ٧٤٥هـ)، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ.

٨. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م.

٩. التخلي عن التقليد والتحلي بالأصل المفيد، عمر العرباوي الحملاوي (ت ١٤٠٥هـ)، م الوراقة، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

١٠. التعددية الدينية في الفكر الإسلامي، حسن عزالدين، العارف للمطبوعات، العراق، ط١، ٢٠١١.

١١. التعددية الدينية والتعايش السلمي، مركز صالح عبد الله، جامعة الأزهر، القاهرة، ط١، ٢٠١٧م.

١٢. التعددية العقائدية وموقف الإسلام منها، يوسف بن محمد القحطاني، دار التدمرية،

الرياض، ط١، ٢٠١٠م.
١٣. التعايش مع غير المسلمين في المجتمع المسلم، منقذ بن محمود السقار، رابطة العالم الإسلامي - مكة المكرمة، ط١، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م.
١٤. تفسير القرآن العظيم، أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ)، دار الفكر، بيروت.
١٥. التفسير الكبير، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (ت ٦٠٦هـ)، دار أحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ.
١٦. تفسير المنار، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني (ت ١٣٥٤هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.
١٧. التفسير الوسيط، د. وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٢٢هـ.
١٨. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (ت ١٣٧٦هـ)، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
١٩. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، دار هجر، القاهرة، ط١، ٢٠٠١م.
٢٠. الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، ت٦٧١هـ، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٦٤م.
٢١. الحوار مع الآخر، علي محمد التسخيري، المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب، طهران، ٢٠٠٣.
٢٢. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين الآلوسي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٤م.
٢٣. زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ.
٢٤. زاد المعاد في هدي خير العباد، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢٧، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
٢٥. سنن أبي داوود، أبو داود سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني (٢٠٢ - ٢٧٥ هـ)، تحقيق، محمد محيي الدين، المكتبة العصرية، بيروت. (د .ت).

٢٦. سنن الاختلاف، عبد الكريم بكار، دار السلام، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م.
٢٧. سماحة الإسلام في معاملة غير المسلمين، د. عبد الله بن إبراهيم اللحيدان، موقع وزارة الأوقاف السعودية، (د.ت).
٢٨. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (ت ٣٩٣هـ)، دار العلم، بيروت، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
٢٩. صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، القاهرة، ١٣٧٧هـ - ١٩٥٥م.
٣٠. العروة الوثقى في ضوء الكتاب والسُّنَّة، د. سعيد بن علي بن وهف القحطاني، مطبعة سفير، الرياض، (د.ت).
٣١. غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، د. يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨٣.
٣٢. فقه الاختلاف، طه جابر العلواني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، عمّان، ط١، ١٩٩٢م.
٣٣. قواعد الأحكام في مصالح الأنام، العز بن عبد السلام، دار المعرفة، بيروت، ط١ ١٩٩١م.
٣٤. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، محمود بن عمر الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٩٨٧م.
٣٥. الكشف والبيان عن تفسير القرآن، أبو إسحاق أحمد بن إبراهيم الثعلبي (ت ٤٢٧ هـ)، دار التفسير، جدة، ط١، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.
٣٦. محاور إسلامية، راشد الغنوشي، بيت المعرفة، تونس، (د. ت).
٣٧. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلس، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.
٣٨. معالم التنزيل في تفسير القرآن، محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت ٥١٠هـ)، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٤، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.
٣٩. معاملة غير المسلمين في الإسلام، د. عباس الجراري، عمان، المجمع الملكي، ١٩٨٩م.

٤٠. معجم اللغة العربية المعاصرة، د أحمد مختار عبد الحميد عمر، عالم الكتب، ط١، ١٤٢٩هـ.

٤١. مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت، (د. ت).

٤٢. مقاصد الشريعة الإسلامية، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت ١٣٩٣هـ)، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م،

٤٣. مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٦م.

٤٤. الموضوعات الكبرى في القرآن، فضل الرحمن، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٨م.

٤٥. نظرات استشرافية في فقه العلاقات الإنسانية بين المسلمين وغير المسلمين، د. حسن بن محمد سفر، موقع وزارة الأوقاف السعودية، (د.ت).

٤٦. النبأ العظيم، محمد عبد الله دراز، الكويت، دار القلم، الطبعة الثالثة، ١٩٨٥م.

٤٧. وجوب تطبيق الشريعة الإسلامية في كل عصر، صالح بن غانم بن عبد الله بن سليمان بن علي السدلان، دار بلنسية للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.